أسلوب الاستفهام في قصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي
- دراسة نحوية -

أ/ اسمهان ميزاب
جامعة الوادي

ملخص البحث

تهدف هاته الدراسة إلى تبين أثر أسلوب الاستفهام في الكشف عن خوالج النفس البشرية وما يعتريها من خوف وقلق، وذلك من خلال أنماطه الثلاثة التي اعتمدها الشاعر إيليا أبو ماضي في طلاسمه وهي:

1- الاستفهام بالحروف.
2- الاستفهام بالأدوات.
3- الاستفهام بالتنغيم.

حيث يرتبط المستوى النحوي بالدلالي ارتباطا وثيقا، يجانف الشاعر من خلاله منطق الشعور العادي.

Resumé

Le but de cette étude montre la façon de l'interrogation pour découvrir le fond de l'être humain et tous ce qu'il l'accompagne (peur, crainte, angoisse) ,et cella a' travers ses trois manières que le poète « Ilia Abou Madhi » a utilisées dans ses « Tallassims » qui sont :

1- L'interrogation par des lettres .
2- L'interrogation par des outils interrogatifs .
3- L'interrogation par des rymes.

Le qui accorde le niveau grammatical avec des preuves bien liées, ce qui laisse le poète loin de la logique de ses sentiments habituels.

مقدمة:

يرتبط أسلوب الاستفهام ارتباطا وثيقا بالدلالة، و من خلاله يمكن التعبير عن حالات وجدانية، ومعان نفسية مختلفة تدرك بالتضافر مع قرائن مختلفة، وقد لاحظت وجوده القوي في قصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي، حيث غدا محاكاة للطبيعة، ومجموعة رموز دالة على الأفعال والأشياء، إنّه يحاكي، يصوّر ويرمز، ممّا أضفى على هاته القصيدة الطابع الشعري، فتفجرت الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم لغة الشاعر، وذلك بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيّز الوجود اللّغوي المحدود بسياق معيّن، يضعنا أمام التساؤلات التالية:

- ما الأغراض البلاغية التي خرج إليها هذا الأسلوب في ظل تخطى الشاعر للواقع باستخدامه للمجاز الذي هو أحد خصائص النشاط النفسي، وذلك بالتّوحد بين الذات ومظاهر العالم الخارجي، حيث تفاعلت اللّغة مع الإحساس؟
- وما الذي يصوره لنا من خلال طريقة وروده وعلاقته بنفس الشاعر؟

ولذا فقد تناولت أسلوب الاستفهام وأنماطه، وتندرج تحته ثلاثة عناوين فرعية هي:

1. الاستفهام بالحروف.
2. الاستفهام بالأدوات.
3. الاستفهام بالتنغيم.

حيث تناولت بالدّراسة الأساليب الواردة بالقصيدة على هاته الأنماط الثلاثة، متبعة في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، حيث بدأت بوصف التراكيب الاستفهامية، عارضة الطريقة التي وردت بها، ثم حللتها تحليلا نحويا مرتبطا بالدّلالة والبلاغة.

أولا: مفهوم الاستفهام:

الاستفهام "معناه طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام[1] أو هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن"[2] أو "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصة"[3] أي هو طلب الفهم من المتلقي (المخاطب) بصيغة يفهم منها السؤال أو الاستفهام.

والاستفهام من أنواع الإنشاء الطلبي[4]، ويتعلق إما بالمسند، وإما بالمسند إليه، وسواء تعلق بهذا أم بذاك، فإنه يكون دوما بإحدى أدوات وأسماء الاستفهام، وهي: "الهمزة، هل، كيف، كم، من، متى، أين، أيان، ماذا، أنىّ وما، وهذه الأدوات لها صدر الكلام[5] وتنقسم بحسب التصور والتصديق إلى ثلاثة أقسام:

1. ما يختص بطلب التصور تارة والتصديق تارة أخرى، وهي الهمزة[6] وهي أصل أدوات الاستفهام، وأم الباب، وأعم تصرفا، وأقوى في باب الاستفهام لأنها تدخل في مواضع الاستفهام كلها[7].

2. وما يختص بطلب التصديق وهو "هل"[8].

3. والذي يطلب به التصور لا غير، هو بقية أدوات الاستفهام[9].

والاستفهام حقيقي، وغير حقيقي، لأنه يمكن أن تستعمل صيغة الاستفهام في غيره مجازا[10] وعندها يخرج إلى دلالات تفهم من السياق.

وأما عناصر الجملة الاستفهامية فهي: المستفهم والمستفهَم، وأداة الاستفهام والمستفهم عنه.

النمط الأول:

الاستفهام بالحروف:

1- الاستفهام بالهمزة: الهمزة إما تكون حرفا ينادى به، أو تكون للاستفهام، "وهي أصل أدوات الاستفهام"[11] "إذ ليس للاستفهام في الأصل غيره"[12]

ويطلب بها التصور تارة، والتصديق تارة أخرى[13]، وقد خصت بأحكام[14].

1- جواز حذفها، سواء تقدمت على "أم" كقول عمر بن أبي ربيعه:

بَدَا لي مِنْهَا مَعْصَمٌ حينَ جَمَرَتْ وَكَفٌّ خَضـــبٌ زُيِّنَت بِبَنَان
فَوَ الله مَا أَدْري، وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا بِسَبْع رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَان؟

أراد بسبع، أم لم تتقدمها كقول الكميت:

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إلى البِيضِ أَطْرَبُ وَلاَ لَعِبًا مِنِّيّ وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

أراد أو ذو الشيب يلعب؟

2- ترد لطلب التصور نحو "أزيد قائم أم عمرو"، وترد لطلب التصديق نحو "أزيد قائم".

3- أنها تدخل على الإثبات - كما تقدم - وعلى النفي نحو [ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك][15].

4- تمام التصدير بدليلين أحدهما: أنها لا تذكر بعد "أم" التي للإضراب كما يذكر غيرها، لا تقول: أقام زيد أم قعد؟ والثاني أنها إذا كانت في حملة معطوفة بالواو، أو بالفاء، أو بثم قدمت على العاطف تنبيها على أصالتها في التصدير نحو: [**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ**] [16] وهذا هو مذهب سيبويه والجمهور،وقد تحرج عن الاستفهام الحقيقي فترد لثمانية معان: [17]

1. **التسوية**: والمراد بها الهمزة الواقعة بعد كلمة سواء، ما أبالي، ما أدري، ليت شعري. ونحوهن، والضابط أنها الهمزة الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلها نحو: [**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ**.] [18] فإنه يصح: سواء علينا وعظك وعدمه.
2. **الإنكار الإبطالي**: وهذه تقتضي أن ما بعدها غير واقع، وأن مدعيه كاذب نحو قوله عز وجل:[**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**] [19] فمن جهة إفادة هذه الهمزة نفي ما بعدها لزم ثبوته إن كان منفيا، لأن نفي النفي إثبات.
3. **الإنكار التوبيخي**: يقتضي أن ما بعدها واقع، وأن فاعله ملوم، نحو قوله تعالى: [أَتَعْبُدونَ مَا تَنْحِتُون][20].

4.التقرير: ومعناه حملك المخاطب على الشيء الذي تقرره به، تقول أزيدا ضربت؟، وذلك إذا دخلت الهمزة على: ما، لم، ليس.

5.التهكم: نحو قوله تعالى:[**قالوا يا شعيب، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا]** (21).

6.الأمر: كقوله –عز وجل-:[**أأسلمتم**] (22) أي أسلموا.

7.التعجب: نحو [ألم تر إلى ربك كيف مد الظل] (23).

8.الاستبطاء: نحو [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله] (24) وذكر بعضهم معاني لا صحة لها.

بعد هاته اللمحة الموجزة عن دلالات همزة الاستفهام أعود إلى طلاسم الشاعر محاولة إيجاد دلالات همزة الاستفهام من خلال السياق الذي ترد فيه.

فمن بين المقاطع التي استخدم الشاعر فيها همزة الاستفهام ذاك المقطع الذي يتحدث فيه عن قضية القدم والحداثة، فهو يتساءل إن كان قديما في هذا الوجود أم جديدا قائلا:

أ جـديد أم قـديم أنا في هـذا الـوجود؟ (25)

فالشاعر هنا يعيد إثارة قضية فلسفية محضة، تتمثل في قضية القدم والحداثة، مضمنا همزة الاستفهام دلالة التقرير، فهو هنا يعلمنا بحقيقة حداثته في هذا الوجود، وذلك من خلال إدراجه لأداة الاستفهام في مركب وصفي بادئا إياه بصفة "جديد"، وكأن صفة "الجدة" تأخذ عنده مركز "بؤرة الشعور" في حين صفة "القدم" تبقى كامنة في هامش شعوره، فتقديم الخبر "جديد" له دوره في تقوية المعنى هنا، فهو بحكم كونه مسيحيا ينفي القدم، ومنه فهو يرى نفسه مخلوقا جديدا في هذا الوجود، كيف لا وهو المؤمن بالكتاب المقدس المقسم إلى عهدين: عهد قديم وعهد جديد، أما العهد القديم فمقوماته مادية بحتة، وهو عهد تجلى فيه الناموس إثر وقوع الإنسان الأول "آدم" في الخطيئة، وهو جسم حيواني يموت، عهد العبودية والخوف والإيمان بموعد سيتم كلفت الملائكة بالعناية به: إذ لا مشاركة فيه مع الله، وإن أراد الإنسان التقرب إلى الله، فإنه يتطهر بختان الجسد، أو بالذبيحة الحيوانية (دم الحيوان)، ولذا فهو هيكل مادي لا روحانية فيه، مادة في مادة، لا يشعر المرء بالعناية الإلهية، وحبها للبشر (26).

أما العهد الجديد، "فمقوماته روحية في أساسها، إذ تحل روح الله فيه، فهو طريق مفتوح إلى الله فتحه المسيح لكي يدخل إلى قدس الأقداس" (27).

ولذا فقد خرجت هنا همزة الاستفهام عن معناها الحقيقي إلى معنى التقرير، فالشاعر هنا يميل إلى الإقرار بحداثته لأنه مذ كان وهو يرغب في التخلص من عالم الماديات، وبراثن الجسد، وبالأخص إن علمنا أن العهد الجديد يتسم عند المسيحيين بتقديمه الجسد -الهيكل- لكي يكون مقرا حيا لله، وإهراق دمه من أجل الخلاص(28).

وفي المقطع التالي يتحدث الشاعر عن الحب قائلا:

كم فتاة مـثـل ليلى وفتى كابـــــــن المـلوح
أنفقا الساعات في الشاطئ تشكو وهو يشرح
كلما حدث أصغـت وإذا قالـــــــــت تـرنح
أحفـيف المـــوج ســـــر ضـيـــــــــعاه؟
لست ادري! [29]

يستحضر الشاعر هنا قصة ليلى، وابن الملوح التاريخية ليسقط عليها همومه، ويجعلها كبديل لمعاناته.

فهو في هذا المقطع يجعل من حفيف الموج سرا، ليتساءل بعد ذلك إن كان كل من ابن الملوح وليلى قد ضيعا هذا السر، وقد جاء استفهامه حقيقيا يوضح لنا بجلاء جهله بالحقيقة، حيث أتبعه مباشرة بجملة "لست أدري" الموحية بعدم دراية الشاعر بأي شيء ولذا فهو ينشد الإجابة لاستفهامه مثبتة كانت أم منفية، لأنها في واقع الأمر إجابة عن حبه هو، لا عن حب قيس وليلى لأنهما بمثابة معادل موضوعي لحبه.

وفي المقطع التالي يتساءل عن كينونته قائلا:

أتراني كنـت يوما نغما في وتر
لست أدري! [30]

فالشاعر في هذا البيت –وبفضل خياله- جسد التوحد بينه وبين الطبيعة، وذلك بمزج بين روحه والطبيعة، فهو في حالة تناسخ بإحلاله لروحه في النغم، والنغم في الوتر صورة حسية ترسبت في لا شعوره للتجرد من عالم الماديات، إذ جعل نفسه بمثابة صوت موقع جميل في الوتر الذي يوقع عليه في العود، وكان ذلك في تساؤل أورده في مركب اسمي عساه يضمن به بقاء كينونته في صورة نغم مستخدما همزة الاستفهام التي ضمنها معنى التصديق، فهو ينشد الإجابة بالإيجاب أو النفي، وليتها تكون بالإيجاب ليضمن لكيانه التجرد النهائي من الماديات والتطهر من كل الأفكار الخبيثة، ولكن أنىّ له ذلك؟

2- الاستفهام بـ هل:

هل حرف موضوع لطب التصديق الإيجابي دون التصور، ودون التصديق السلبي[31].

فالسائل يطلب بها معرفة وقوع النسبة، أو عدم وقوعها، أي التصديق فحسب؛ "لأن التصديق هو الحكم بثبوت النسبة أو انتفائها، والنفي والإثبات إنما يتوجهان إلى المعاني والأحداث التي هي مدلولات الأفعال" [32].

وهي تخصص المضارع للاستقبال مثل السين وسوف، ويستفهم بها عن حقيقة الخبر، وجوابها نعم أو لا [33] نحو: هل تسافر؟

وقد تأتي بمعنى:[34]

1- قد" ويقول في هذا المعنى سيبويه:"أم هل، فإنما هي بمنزلة قد، ولكنهم تركوا الألف استغناء، إذ كان هذا الكلام لا يقع إلا في الاستفهام" [35] نحو قوله عز وجل: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [36]. بمعنى قد أتاك حديث الغاشية

2-"ما"، أي النفي، ويعين ذلك دخول "إلا" نحو قوله تعالى :﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [37] والمعنى: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، بالإضافة إلى معاني أخرى كانت موضع نقاش بين النحاة، كالتحقيق والتأكيد....

يبقى الشاعر غارقا في تساؤلاته قائلا:

كلّما أيقنت أنّي قد أمطت السّتر عنّي
وبلغت السرّ سرّي ضحكت نفسي منّي
قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدني
فهل الجهل نعيم أم جحيم؟
لست أدري ! [38]

إنّ الشاعر هنا يعبّر عن يأسه في إماطة الستر عن نفسه لمعرفتها ولذا بدا وكأنّه يفتش عن عزاء لهذا العجز متسائلا إن كان الجهل نعيما أم جحيما.

وهو في هذا المعنى يلتقي مع شاعر التعالي والكبرياء -أبي الطيب المتنبي- الذي أصدر حكمه دون تردّد على أنّ الجاهل يعيش في سعادة والعالم يشقى في النعيم بعقله إذ قال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم [39]

فإن كان المتنبي قد فصل في هذا الأمر، فإنّ أبا ماضي عاجز عن ذلك وهذا ما نستشفه من استفهامه، حيث وردت "هل" بمعنى الاستفهام الحقيقي، الذي ينشد الشاعر من ورائه الجواب، وما يدعّم كونه حقيقيا وجود القرينة اللّفظية "لست أدري".

وقد أدرج الشاعر استفهامه في مركب اسمي صدّرت فيه الفاء على حرف الاستفهام، حيث أفادت ترتيب وتعاقب المعطيات والأحداث في نفس الشاعر فبعدما بحث عن سرّ نفسه، ووجد اليأس والحيرة تساءل بعد ذلك عن أنسب صفة للجهل، أهي النعيم أم الجحيم؟

وقال في مقطع آخر حيث قال:

فيّ مثل البحر أصداف ورمل ولآل
فيّ كالأرض مروج وسفوح وجبال
فيّ كالجو نجوم وغيوم وظلال
هل أنا بحر وارض وسماء؟
لست أدري ! [40]

في هذا المقطع صور مركبة توحي بقوة التماثل والتشابه بين الشاعر والمظاهر الطبيعية: البحر، الأرض، الجو، ولفهم الاستفهام الوارد هنا حريّ بنا

شرح هاته الصّور "لآنّ دراسة حروف المعاني دراسة للتركيب الذي يكون فيه الحرف بمفرداته وعلاقاته الأخرى" [41].

فهذا التماثل بين الشاعر وهاته المظاهر يفسّر لنا رغبته في التعبير عن مشاعره تعبيرا صادقا، ففي البيت الأول يشبه الشاعر نفسه بالبحر، ففي البحر أصداف ورمل ولآلئ، ذلك العالم المعقد لما يحتويه من خوف وأمن، والأصداف هي ذلك الغشاء الذي يحمي الدّر، إنّه بمثابة حائط يحيط بالنفس بغشاوة تمنعها أن ترى الحقيقة، فهي رمز لفقدان الأمل، ويرتبط الرّمل في نفسية الشاعر بالظمأ الرّوحي، والضياع واليأس، فالرّمل والأصداف في هذا السياق هي صور الإحساس بالحجاب الكثيف والحائل دون الحقيقة والنور، واللآلئ هي رمز للنور، وتمثل الحياة الإيجابية في نفسية الشاعر.

وفي البيت التالي يشبه الشاعر نفسه بالأرض، وذلك لما تحتويه من صعاب ومشاق ومحاسن، واكتملت صورة الأرض بكل حذافيرها بمروجها وسفوحها وجبالها، فقد تمثّل نفسه أرضا فيها مروج خضراء، تلك الأرض الواسعة ذات النبت الأخضر الذي يمثل في نفسية الشاعر الحياة الخصبة والأمل، لكن صورة السفح والجبل فهي تعني الصعاب والعقبات، فمن خلال الجبل والسفح يسقط الشاعر قلقه النفسي وتخوّفه من المجهول إذ يصوّر من خلال الجبل والسفح رحلته الشاقة في اكتشاف الذات، حيث يصطدم بالمنحدرات والمرتفعات فيعجز عن الوصول إلى القمة.

وفي البيت الأخير شبه الشاعر نفسه بالجو، ففيه نجوم وغيوم وظلال فهنا يربط بين المشاهد وأثره الباطني، أي أن الحالة النفسية ماثلة في محسوس، فالنجوم رمز للنور تتلألأ في الليل مشعة في كل ما هو موجود فالنور منه البداية لكل شيء يعرف الحياة، وكان كاشفا يضيء الأشياء للوصول إلى الحقيقة، لكن يتغير ويتقلب هذا الأمل بصورة الغيوم رمز الضباب والكثافة، وعدم اتضاح الرؤية أمام الشاعر، فالضباب مرتبط بالظلام، والظلام مرتبط بهدم الحياة، كما أنّه يرتبط بالغموض لفرط ما يخيم الدّجى على الحالة، ويشّل الإرادة، ويعطّل الاختيار ويحلّ الهزيمة محل الانتصار، وبتعاونه مع الظلام تولد لدى الشاعر معاني الكرب والحزن واليأس.

فبعد ما شبّه الشاعر نفسه بتلك الصّور يتساءل في البيت الأخير قائلا:

هل أنا بحر وأرض وسماء؟

لست أدري ! [42]

وما جرّ الشاعر إلى مثل هذا التساؤل، هو ذلك التماثل بينه وبين البحر والأرض والسماء مستخدما في استفهامه هذا حرف الاستفهام "هل" الذي تضمن معنى الاستفهام الحقيقي، فالشاعر يودّ لو يعرف إن كان بحرا وأرضا وسماء، فهو يسعى إلى الجواب منفيا كان أم مثبتا عساه يطفئ ظمأه الرّوحي للحقيقة الضائعة، وما وجود القرينة اللفظية "لست أدري" إلاّ دليل على ذلك.

وبعد هذا أنتقل إلى نوع آخر من أنماط الاستفهام وهو الاستفهام بالأدوات.

النمط الثاني:

الاستفهام بالأدوات وهي: من، ما، متى، أين، أنّى، كيف، كم، أيّ، أيّان، وهي أسماء وظروف يستفهم بها نيابة عن الهمزة، وهي جميعا تختص بطلب التصور على تفصيل بينهن (43).

فمن: للاستفهام لما يعقل خاصة (44)، وقد يكون معناها النفي إذا أدرجت "إلاّ" (45)، وبتعبير السكاكي هي للسؤال عن الجنس من ذوي العلم (46).

ما: اسم استفهام بمعنى "أي شيء"، ولها صدر الكلام، ويسأل بها عن أعيان ما لا يعقل وأجناسه وصفاته، ويحتمل أن "ما" سؤال عن ماهية الشيء ويحذف ألفها، ويكثر ذلك في حالة الخفض مع إبقاء الفتحة دليلا عليها نحو فيم، إلام، علام وبم.. للتفريق بين الاستفهام والخبر (47)

متى: اسم استفهام للسؤال عن الزمان (48)

أين: للسؤال عن المكان(49).

أنّى: للسؤال عن الحال والمكان، إذ تستعمل تارة بمعنى "كيف" وأخرى بمعنى "من أين"(50).

كيف: للسؤال عن الحال، فهي استفهام عن حال الشيء لا عن ذاته(51).

كم: نكرة لا تتعرف لأنّها مبهمة في العدد فهي قسمان:

استفهامية تحتاج إلى جواب بمعنى أيّ عدد؟ فينصب ما بعدها وخبرية لا تحتاج إلى جواب(52).

والاستفهامية يكون مميّزها كمميّز عشرين وأخواته، فيكون مفردا منصوبا، ويجوز جرّه بـ"من" مضمرة إن وليت كم حرف جر نحو "بكم درهم اشتريت هذا ؟،أي بكم من درهم اشتريت هذا؟ فإن لم يدخل عليها حرف جر وجب نصبه (53)، وقد يحذف هذا المميّز للدّلالة عليه نحو: كم عبد الله ماكث أي كم يوما أو شهرا (54).

أيَّ: ويحكم عليها بما تضاف إليه، فإنها لا تكون إلاّ مضافة (55). وهي الوحيدة المعربة، وتكون صفة نحو "مررت برجل أيّ رجل، أو حالا نحو: مررت بزيد أيّ رجل (56).

أيّان: قبل اشتقاقها من "أيّ" لأن معناها: أي وقت، وقيل أصلها "أيّ أوان" وهي بمنزلة "متى". وفي أيّان تعظيم فلا تستعمل إلاّ في موضع التفخيم (57) .

وهاته الأدوات جميعا، تخرج إلى معاني أخرى تستفاد من السياق كالاستخفاف والتحقير، والتعجب والاستبطاء والإنكار، والتهديد والتمني...

يتساءل الشاعر في المقطع الموالي قائلا:

كلها مثلي تحيا، كلها مثلي تموت
ولها مثلي شراب، ولها مثلي قوت
وانتباه ورقاد، وحديث وســــــكوت

فبـــما أمتاز عنها لـــــيت شعري؟
لست أدري! (58)

إن في استخدام الشاعر لهاته الصيغة بهذا الشكل تجاوز للقواعد فهي تكتب بدون ألف مع إبقاء الفتحة دليلا عليها لكونها مجرورة(59) إلا أنه فضّل استخدامها بالألف، وذلك للضرورة الشعرية كي تستقيم له تفعيلات بحر الرمل، وليضفي عليها نغمة صاعدة حيث تكون الميم موضعا للنبر، وهو في هذا المقطع متجه نحو التشابه، أجل إنه التماثل المتجلي بين شخصه وباقي الكائنات الحية "العصفورة، الزهرة، الحية، النملة" فجميعها مثله تحيا وتموت، ولها شراب وقوت وصحوة ونوم، حديث وسكوت، فبم يمتاز عنها؟

إنه تساؤل نستكشف من ورائه غياب الحدود، فالشاعر يشكو تشوش حدود وجوده مع باقي الكائنات الحية، وقد خرج اسم الاستفهام هنا إلى معنى التمني، فالشاعر يتمنى معرفة ما يميزه عن هاته المخلوقات الحية، وما يدعم هذا المعنى القرينة اللفظية "لست أدري".

ويتساءل في المقطع الثاني من مقاطع البحر قائلا:

أيها البحر، أتدري كم مضت ألف عليكا
هل الشاطئ يدري أنـه جـــــاث لديكا
وهل الأنهار تـدري أنـها منـــك إليـــــكا
ما الذي الأمواج قالـــت حـــــين ثـارت؟
لست أدري! (60)

ففي البيت الأخير من هذا المقطع يتساءل الشاعر في مركب موصولي عما قالته الأمواج وهي ثائرة من خلال حرف الاستفهام "ما" الذي أفاد معناه الحقيقي، وهو السؤال عن ماهية أقوال غامضة رددتها الأمواج فتلهف الشاعر لسماعها، وما يترجم لنا تلك اللهفة طريقة طرحه للتساؤل، فقد قدم المفعول به، وهو اسم الموصول "الذي" لكونه مهتم بطبيعة تلك الأقوال، ثم عقَّبه بالفاعل، وهو الأمواج، فهو هنا لا يأبه إلا بأقوال الأمواج، فأقوالها وحدها تهمه ليأتي في الأخير بالفعل، ضاربا في هذا قرينة الرتبة: <<فالرتبة في التركيب اللغوي الشعري تعني معالجة مسألة التقديم والتأخير، ليس التقديم والتأخير إعادة ترتيب موقع الألفاظ دون الرتبة، بل تغيير اللفظ شكليا ومعنويا، مكانة ورتبة، إذ أن تحويل بنية الجملة وتركيبها يقتضي تحولا في الدلالة، أو في هيئة الإحساس بها>> (61) ففي هذا الموضع إذا غيرنا رتبة الأمواج ذهب الجمال، فالتقديم هنا يوضح الإلحاح على معنى مواجهة الانفراد واليأس، ويوحي بالبحث عن جذور حياة الشاعر لإدراك حقيقتها.

فسياق الاستفهام هذا ممتزج بعاطفة الحزن واليأس، فما عسى الأمواج أن تقول وهي ثائرة، فالأمواج هنا رمز الغضب والانفعال والثورة في ذلك المكان الرحب الفسيح وهو البحر، فهي دليل غضب البحر وهيجانه، وما يدعم كون الاستفهام

حقيقيا وجود القرينة اللفظية "لست أدري" فالشاعر هنا حقا لا يدري بما تفوهت به الأمواج.

ويتساءل الشاعر أيضا باسم آخر من أسماء الاستفهام وهو "متى" في أحد مقاطع البحر قائلا:

أنت يا بحر أسـير آه مـا اعــظم أسرك
أنت مثلـي أيـها الجبار لا تمـلك أمـــرك
أشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك
فـمـتـى أنـــجـو من الأسـر وتـنـجــــــو؟..
لست أدري! ((62))

جنح الشاعر في هذا المقطع إلى التشخيص بخلع المشاعر والصفات الإنسانية على الجامد نحو"البحر أسير" صورة تصور واقع الإنسان وهو يتصارع مع الوجود، فتشخيصه للبحر وتفاعله معه تأكيد لذاته فهو كالأسير المقيد الذي لم يجد ذاته، فصورة القيود توحي بالعجز وتُشْعِرُ الإنسان بقلقه وضياعه، وجملة "ما أعظم أسرك" توحي بتأكيد الرهبة والتفرد، والخوف من المجهول، فلا يراد به الأسر الحقيقي إنما هو رمز لاختناق معنوي، واغتراب نفسي، فجعل البحر مثله لا يملك أمره، ويظهر كل واحد حجته للآخر، ويربط نجاته من الأسر بنجاة البحر، من خلال تساؤله عن زمن نجاته من الأسر حيث قال:

فمتـى أنجو من الأسر وتنجو؟
لست أدري!

مستخدما اسم الاستفهام "متى" الذي وضع في أصل معناه، وهو السؤال عن الزمان، فالشاعر يبحث عن تاريخ محدد يستطيع التحرر فيه من هذا الأسر المقيت، الذي ما استطاع له صبرا، ولذا كي يخفف عن نفسه لجأ إلى العالم الأكثر فساحة، إنه البحر، حيث جمع بين معاناتهما، فعبر عن مشاعره وأحاسيسه، واتخذ منه قوة للانتصار على ضعفه، لأن كلا منهما مقيد ومكبل، الشاعر يكبله طموحه، والثاني يكبله جموده.

وختم الشاعر تساؤلاته بأين بالمقطع التالي:

غـلـط القائل إن الخمر بـــــــــــــت الخابيه
فهي قبل الزّق كانت في عـــــــــروق الدّاليه
وحواها قبل رحم الكرم رحـــــــــــم الغاديه
إنّـما من قـبـل هــذا أيـــــــــــــــــن كانت ؟
لست أدري! (63)

يتساءل الشاعر هنا عن الرّحم الأول للخمرة، فهي قبل الزق كانت في عروق الدالية، ولكن قد حواها رحم الغادية قبل رحم الكرم، فهو استفهام حقيقي عن الرحم الأول الذي حواها. والقرينة اللفظية "لست أدري" دليل على ذلك، إنه تساؤل عن المكان الأول ومنه كما تعودنا مع الشاعر إنها الرحلة في البدايات..في الأصول،

وفي الحقيقة إن بحث الشاعر عن المكان الأول الذي حوى الخمرة هو بحث عن الرحم الأول الذي حواه فهو يجهل بداياته، وطريق مجيئه إلى هذا الوجود، ولذا نجده دوما يسقط مآساته على مختلف الموجودات.

وأختم أسلوب الاستفهام بنمطه الأخير وهو الاستفهام بالتنغيم.

النمط الثالث:

الاستفهام بالتنغيم:

إن الأداة حين تحمل تلخيص أسلوب الجملة قد تحمله إيجابا بوجودها أو سلبا بعدمها بالاتكال على قرينة النغمة وهو ما يسمى "الدلالات العدمية" [64].

فالصيغة التنغيمية منحنى نغمي خاص بالجملة يعين على الكشف عن معناها النحوي [65].

وسياق النغمات في كل جملة له من الطابع العرفي المشروط المحدد ما للكلمة في دلالتها على معناها وما للحركة أو الرتبة في دلالتها على الباب النحوي الخاص [66].

والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة [67].

فللنغمة دلالة وظيفية على معنى الجمل تتضح في صلاحية الجمل التأثرية المختصرة نحو: لا!، نعم!، يا سلام!، الله!، ...الخ لأن تقال بنغمات متعددة ويتغير معناها النحوي والدلالي مع كل نغمة بين الاستفهام والتوكيد لمعان مثل الحزن والفرح[68].

<<فالتنغيم لا ينشئ علاقات نحوية ليست موجودة، ولكنه يختار بعض العلاقات النحوية القابعة تحت السطح المنطوق، ويظهر تأثيرها في التفسير>> [69].

فالنغمة إذن قرينة تغنى عن قرينة الأداة.

ومن المواضع التي حذفت فيها أداة الاستفهام تلك المقاطع التي وردت فيها أم المنقطعة.

وقبل أن أعود للقصيدة للبحث عن تلك المواضع حريّ بي أولا أن أعرف بهذا الحرف.

ف"أم" نوعان: متصلة؛ وهي التي تختص بطلب الجواب عن أحد ما يذكر على التعيين في العطف.

ومنقطعة، وقد سميت بالمنقطعة لانقطاع ما بعدها عما قبلها وهي بمعنى بل وهمزة الاستفهام غالبا [70] وهي التي لا يكون قبلها لا همزة التسوية ولا همزة الاستفهام التي يطلب بها و "أم" التعيين [71] وتكون إما [72]:

- مسبوقة بالخبر المحض.
- مسبوقة باستفهام بغير الهمزة.

وإن كانت "أم " المتصلة يقدر الكلام فيها باستفهام واحد، ومن كلام واحد فالمنقطعة تقدَّر من كلامين؛وإن كانت أم المتصلة يقدر الكلام فيها باستفهام واحد،

ومن كلام واحد فالمنقطعة تقدر من كلامين؛ إما استفهامين، أو خبر واستفهام، وجواب المنقطعة نعم أم لا [73]،<<فهي تختص بطلب التصديق>> [74] ولا يفارقها الإضراب، إذ تفيد الإضراب والاستفهام غالبا، وقد تفيد الاستفهام الإنكاري، وقد تفيد الإضراب فقط[75]. والصحيح أنها لا تخلو من الاستفهام كما قال سيبويه.

ويقول الزركشي فيها :<< فـ"أم" بمعنى الهمزة، والإضراب مفهوم من أخذك في كلام آخر وترك الأول> > [76] ومنه حذفت همزة الاستفهام في الكلام، وهذا من مواضع الضرورة، حيث أغنت عنها قرينة النغمة.

فمن بين مواضع هذا النمط من الاستفهام قول الشاعر:

كم ملوك ضربوا حولك في الليل القبابا
طلع الصبح ولكن لم نـــجد إلا الضبابا
ألهم يا بحر يومـــا رجـــــعة أم لا مـآبا
أم هم في الرمـــل؟ قـال الرمـــــل إني..
لست أدري [77]

في هذا المقطع يسائل الشاعر البحر عن حال الملوك؛ أستكون لهم يوما رجعة أم لا مآبا؟ ليضرب عن هذا التساؤل في البيت الأخير بأم المنقطعة قائلا:

أم هم في الرمل؟ قال الرمل إنـي..
لست أدري

فهو هنا يعطي احتمالا معينا لمكان وجود الملوك وهو الرمل مستخدما في ذلك أم المنقطعة التي نابت عن الهمزة، وأفادت معنى اليأس؛ فالشاعر هنا يائس من عودة هؤلاء الملوك.

فما الرمل هنا إلا رمز للظمأ الروحي للشاعر، إنه معنى الضياع لأن وجود الملوك بالرمل يعني ضياعهم، ومنه ضياع الشاعر بحثا عن الحقيقة التي ضنّ بها عليه الصبح.

ويتساءل في المقطع الخامس من مقاطع صراع وعراك قائلا:

كل يـوم لـي شـأن، كـــل حين لـي شعور
هل أنا اليـوم أنا مـــنذ لـيال وشهـــــــور
أم أنا عند غروب الشمس غيري في البكور
كـلما سـاءلـــــت نفســـي جـــــــاوبتـنـي :
لست أدري [78]

إنا نجد الشاعر في هذا المقطع متسائلا إن كان عند غروب الشمس غيره في البكور معتمدا في ذلك على زيادة نغمة صاعدة علّى المقطع الأخير في المركب الاسمي وهو "تراني".

فالشاعر في تساؤله ذاك يحس بغرابة نفسه عنه، ويالها من مأساة حينما تصبح النفس عنا غريبة، إذ تكتسي في كل فينة حلة جديدة، ولذا بثنا مأساته في

صورة استفهام حقيقي ينشد له الجواب. وما القرينة اللفظية "لست أدري" إلا دليل على ذلك.

وأختم هذا النوع من الاستفهام بهذا المقطع المختار:

يرقص الموج وفي قاعك حرب لن تزولا
تخلق الأسماك لكن تخلق الحـــوت الأكولا
قد جمعت الموت في صدرك والعيش الجميلا
ليت شعري أنت مـــهد أم ضـــــــــــريح؟
لست أدري (79)

إن الشاعر في هذا المقطع أورد صورا متقابلة تصور تقابل أبعاد النفس مثل: "الموج يرقص" فالرقص يوحي بالفرح والأمل، وتقابلها صورة أخرى للقلق والاضطراب، وهي صورة الحرب الأبدية في قاع البحر، فالحرب توحي بالتشوش والاضطراب، والصورة الأخرى هي صورة خلق الأسماك، فهذا دليل الحياة، وتقابلها صورة الحوت الأكول، وهو دليل الموت، ثم هناك صورة أخرى تجسّد فيها الموت الذي تقابله صورة الحياة.

فهاته الصور المتقابلة تداخلت لأجل تصوير الصراعات المتجسدة في نفس الشاعر، فتساءل عن حقيقة البحر، أهو مهد أم ضريح وقد خرج الاستفهام هنا إلى معنى التمني، فالشاعر يتمنى حقا معرفة حقيقة البحر، وما يدعم ذلك القرينة اللفظية "ليت شعري".

خاتمـــة:

ومنه نستخلص أن مختلف تلك التراكيب الاستفهامية بجميع أنماطها، لم تخرج عن معانيها الحقيقية إلا في مقاطع قليلة؛ فأبو ماضي لا هدف له إلا البحث عن كينونته في خبايا الزمن المنطوي، ولذا فقد تضافرت أجواء التساؤل حتى وصل بها إلى ذروة التوغل الوجودي العميق، وكأنه يتلو قصة نفسه ومعاناته من مصيره في الوجود، فتخبط الشاعر في لا أدريته حالة واقعية، فاللفظية في معجمه اللغوي لفظة إيحائية تنفذ إلى الأعماق. وذلك مردّه لأوجه الحيرة، والتمزق النفسي اللّذين يعيشهما، فقد ألفيناه في استفهاماته تلك معبّرا عن معان نفسية مختلفة، هي في مجملها تصوّر لنا صورة التأملات المعانقة لأحضان الكون، والتي تحاول أن تستكشف لا أدريته وحيرته في الصورة التي رسمتها ريشة المهجريين، وهي في مسارها تعبّر عن أثر الامتزاج الرّوحي بالبيئة المادية في الرّومانسية من خلال فلسفته الشاكية الحائرة، وذلك باعتماده على لغته الخاصة، واختياره المميّز لترتيب وحداتها، فمرّة يقدّم، وأخرى يؤخر، وهذا ما يزيد في تقوية معانيها، ويضفي عليها إيقاعا تطرب له النفس، ويزيد اللّغة قدرة على التعبير، وتحريك الخيال، ويكسبها طاقة جديدة.

الهوامش:

[1] يحي بن حمزه العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق الاعجاز،مطبعة المقتطف بمصر، دار الكتب الخديوية بمصر 1914 م، 286/3.
[2] علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ضبطه محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط 1 (1991)، ص35.
[3] عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1974، ص96.
[4] المرجع السابق ص96.
[5] عبد القاهر الجرجاني -أسرار البلاغة في علوم البيان، تصحيح محمد عبدو، وتعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت (دت)، ص3.
[6] درويش الجندي، علم المعاني، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة (د ت)، ص43 وعبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، دار الجيل، بيروت (1410 – 1990)،ص19-20.
[7] السيوطي -الأشباه والنظائر، راجعه وقدم له فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، بيروت ط1 (1984)، 141/2 وعبده الراجحي-دروس في كتب النحو، دار النهضة العربية بيروت 1975، ص205.
[8] هادي نهر، التراكيب اللغويةفي العربية، مطبعة الإرشاد، بغداد 1987، ص14.
[9] المرجع السابق ص14.
[10] السيوطي –ا لإتقان في علوم القرآن ، عالم الكتب، بيروت (دت)، 79/2.
[11] ابن هشام -مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل ط1 (1411 – 1991)م، 19/1.
[12] سيبويه –الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ط1، 99/1.
[13] السيوطي -الأشباه والنظائر 141/2.
[14] ابن هشام -مغني اللبيب 22/1.
[15] سورة الشرح (1-2).
[16] سورة يونس 51.
[17] ابن هشام، مغني اللبيب 29/1، السيوطي -همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرم، دار البحوثا لعلمية الكويت 1979، ص362-363.
[18] الشعراء 136.
[19] الصافات 149.
[20] الصافات 195.
[21] هود 87.
[22] آل عمران 20.
[23] سورة الفرقان 45.
[24] الحديد 16.
[25] إيليا أبو ماضي، الديوان، دار العودة ، بيروت، ص191.
[26] ندرة اليازجي، رد على اليهودية واليهودية المسيحية ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق سوريا، ط 2 (دت)،ص174-175.
[27] المرجع ذاته ص176.
[28]. ندرة اليازجي، رد على اليهودية والمسيحية ص187.
[29] إيليا أبو ماضي، الديوان ص195.
[30] المرجع نفسه ص211.
[31] ابن هشام –مغني اللبيب 562/1.
[32] درويش الجندي، علم المعاني ص47
[33] ابن هشام، مغني اللبيب 563/1، الرماني النحوي، معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط3 (1404 – 1984)، ص102 وإميل بديع يعقوب –موسوعة الحروف في اللغة العربية، دار الجيل، بيروت، ط2 (1995)، ص195.
[34] ابن هشام –مغني اللبيب 562/1-563 وموسوعة الحروف 195.
[35] سيبويه –الكتاب 10/1، والمبرد –المقتضب، تحقيق عبد الخالق عظيمة عالم الكتب، بيروت (د ت)، 289/3.
[36] الغاشية (1)
[37] الرحمان 60
[38] ا إيليا أبو ماضي، الدّيوان، ص210
[39] أبو الطيب المتنبي -الديوان، توزيع دار الجيل، بيروت (دت)، ص11،

[40] إيليا أبو ماضي ،الديوان ص211
[41] د/ محمد حماسة عبد اللطيف -النحو والدّلالة ، دار الشروق ط 1 (1420 – 2000) ،ص53
[42] إيليا أبو ماضي، إيليا أبو ماضي الدّيوان ص211
[43] الزركشي –البرهان 347/2 والسكاكي –مفتاح العلوم،ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط2 (1407 – 1987) ، ص310
[44] الرماني –معاني الحروف ، ص153، والأنباري أسرار العربية، الدراسة وتحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1418 – 1997) ، ص193.
[45] ابن هشام – مغني اللبيب 528/1 ، والزركشي، البرهان، 402/4.
[46] السكاكي – مفتاح العلوم ص311
[47] البرهان 402/4 ، ومغني اللبيب 486/1.
[48] مفتاح العلوم، ص313.وأسرار العربية ، ص193.
[49] مفتاح العلوم، ص313 .
[50] البرهان 249/4 ومفتاح العلوم ص313
[51] البرهان 330/4 ومفتاح العلوم ص313
[52] البرهان 328/4
[53] بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي –شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل ط5 (1417 – 1997) ، 2،421/
[54] الزمخشري –المفصل في صنعة الإعراب، قدم له وبوبه د/ علي بوملجم، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان ، الطبعة الأخيرة (1421 - 2000)، ص224، وشرح ابن عقيل 421/2 وابن بركات المهلبي –نظم الفرائد وحصر الشرائد، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبتي الخانجي والتراث ط1 (1406 – 1986)، ص92
[55] الأنباري –أسرار العربية ص193
[56] الرّماني –معاني الحروف ص161
[57] الزركشي –البرهان 251/4
[58] إيليا أبو ماضي ،الديوان ص212
[59] ابن هشام -مغني اللبيب 486/1
[60] إيليا أبو ماضي ،الديوان، ص193
[61] ابراهيم رماني -الغموض في الشعر العربي الحديث، الجزائر 1964، ص201
[62] إيليا أبو ماضي ، الديوان ص193
[63] إيليا أبو ماضي ، الديوان، ص213
[64] د/ تمام حسان -اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 (1997)، ص168
[65] المصدر نفسه ص226
[66] المصدر والصفحة نفسهما
[67] المصدر نفسه ص228
[68] د/ تمام حسان -اللغة العربية معناها ومبناها ص228
[69] د/ عبد اللطيف حماسة، النحو والدلالة ص119
[70] إميل بديع يعقوب -موسوعة الحروف ص127
[71] المصدر نفسه ص126
[72] ابن هشام -مغني اللبيب 83/1 وموسوعة الحروف ص126
[73] ابن بركات المهلبي -نظم الفرائد وحصر الشرائد ص20
[74] الزركشي -البرهان في علوم القرآن 328/2
[75] ابن هشام -مغني اللبيب 83/1 وموسوعة الحروف ص127
[76] الزركشي -البرهان في علوم القرآن 181/4
[77] إيليا أبو ماضي ،الديوان، ص195
[78] إيليا أبو ماضي ، الديوان، ص 207
[79] إيليا أبو ماضي ، الديوان ص194